فـــي ظلال العمارة الإسلامية
الإبداعُ في العمارةِ الإسلاميَّةِ

الحلقة (٢)

د. م. حسان فائز السراج
باحث في فن العمارة الإسلامية

لقد عَبّرت الشعوبُ عن نفسها في الفترات التاريخية المختلفة، من خلال نشاطاتها الحضارية في (الآداب، والعلوم، والفُنون) بمختلف أنواعها، وظلَّ الفنُّ (المعماريُّ، والعُمرانيُّ) من أغنى الدَّلالات على تقدُّم الشعوب ورُقيِّها .
وإذا ما كانت الحضارةُ هي نتاجَ (شعبٍ ما، أو أمَّةٍ ما) في مختلف مجالات الحياة؛ فإنّ الفنَّ المعماريَّ (تجسيدٌ) للمفاهيم كافّةً، و(اختزالٌ) للقيَم والمعتقَدات والثقافات الخاصَّة بأيِّ حضارة .
لم تكن (الأهراماتُ) حجْماً يُعبِّرُ عن (مجال التصميم، وإعجاز الإنشاء) فحسبْ؛ وإنّما هو قَبْلَ كُلِّ شيءٍ بناءٌ يُعبِّرُ عن (فِكْر، وفلسفة الخلود) لدى الشعوب المصرية القديمة،
وكذلك (الزيقورات) في بلاد الرافدين التي هي عبارةٌ عن (أبراجٍ) تحوي في مَناسيبها العُلويَّة معابدَ صغيرةً للآلهة المزعومة، ويُعبِّرُ ارتفاعُها عن الارتقاء نحو السماء، مَنزل الآلهة، وينطبقُ الأمرُ نفسُه على المعابد والأوابد (اليونانية، والرُّومانية، والبيزنطية) –كلُّ حضارةٍ حسبَ مُعتقداتها وفلسفتها الخاصَّة بها– وُصولاً إلى ناطحات السَّحاب التي تُعبِّرُ عن (سُلْطة المال، وسَيطرة الاقتصاد الحُرِّ) على كلِّ ما حولَه .
كذلك فإنّ الدِّينَ الإسلاميَّ العظيمَ والذي بدأ أوَّل ما بدأ وانطلقَ من كَلمةٍ مُوجَزةٍ –تُعتبَرُ مفتاحاً لـ(لحياة، والرُّقيِّ، والحضارة، والسعادة)في الدُّنيا قبلَ الآخرة– ألا وهيَ « اقْرأ » في حيِّزٍ (غار حراء)، كان إعلاناً بالمضمون العلميِّ والدُّنيويِّ للإسلام الحنيف، إضافةً إلى المضمون (الدِّينيِّ، والأُخرويِّ)، واستطاعَ الإسلامُ العظيمُ بما مَلَكَ من (فقْهٍ ربَّانيٍّ، وفِكْرٍ إنسانيٍّ) أن ينتشرَ على رقعةٍ واسعةٍ تمتدُّ من الصين (شَرقاً) حتّى تُخومُ العاصمة الفرنسية (غَرباً)، وأنتجت الحضارةُ الإسلاميةُ شخصيةً فنِّيَّةً مُتكاملَةً في (العمارة، والفُنون، وتخطيط المدن) لها ما لها من الخصائص التي تُظهِرُ (تَفرُّدَها، وتُميُّزَها) عن غيرها من الحضارات، في كُلِّ بُقعةٍ من البِقاع التي انتشرَ فيها الإسلامُ الحنيفُ .

أجلْ: لقد اتّصفَ الفنُّ (المعماريُّ، والعُمرانيُّ) الإسلاميُّ باستيعابه المدارسَ التي سبقتْه كافّةً، وكانت سائدةً في (آسية الغربية)؛ فحاورَها طالبَ (علْمٍ، وفَنٍّ، وحضارةٍ)، وتعلَّمَ منها، ونهلَ من تُراثها، ومن ثَمَّ صارَ (المعلِّمَ القديرَ، والناقدَ البصيرَ)؛ فصاغَ ما أخذَه بأسلوبه الخاصِّ الفريد، واستطاعَ في مئة عامٍ أن يَصقلَ هذه الشخصيّةَ الفنِّيَّةَ، وهذه الهُويَّةَ الخاصَّةَ التي تميَّزتْ بها الحضارةُ الإسلاميةُ وتفرَّدتْ بـ(استقلاليَّتها الفكرية المتَّزنة، وسُموِّها الرُّوحيِّ المُشرق).

كما جاوزَ الإسلامُ العظيمُ حُدودَ الجزيرة العربية مُنتشراً في المناطق التي كانتْ خاضعةً لسيادة الإمبراطُوريَّتَين (البيزنطية والفارسية)، وكانت مَسرَحاً لأغنى الحضارات وأكثرها رُقيّاً، ومن ثَمَّ وَرِثَ عن هاتَين الإمبراطوريَّتَين تقاليدَهما (المعماريَةَ، والعُمرانية) التي كانت أصلاً مُمتَزِجةً بالتقاليد الفنِّيَّة المحلِّيَّة لمَناطق نُفوذهما، وكانت تَسُودُها المدارسُ (المعمارية، والفنِّيَّةُ) الآتيةُ:

* المدرسةُ البيزنطيةُ أو "المسيحيَّةُ الشرقيَّةُ": كانت مُنتشرةً في (آسية الصُّغرى "تركيّا"، وسُوريَّةَ، وفلسطينَ، وشَرقيِّ الأُردُنِّ)، وقد وقَعَتْ هذه المنطقةُ تحت (التأثير الكلاسيكيِّ) نحوَ ألفِ عامٍ منذُ عهد "الإسكندرِ" حتّى الفتحِ الإسلاميِّ، وتأثَّرتْ بـ(الموجات الهِلِّنسْتيَّة).

* المدرسةُ الفارسيَّةُ: وكانتْ سائدةً في (العراق، وفارس)، وتأثَّرَتْ هذه المدرسةُ بالفنون (المعمارية، والزُّخرفيّة) المقتَبسَة عن المدرسة الرَّافِديَّة mesopotamian التي كانت سائدةً في الألفين (الثالث والثاني) قبلَ الميلاد.

* المدرسةُ القبطيَّةُ: وكانت مُنتشرةً في مِصرَ، وهي (وريثةُ) المدرسة المِصرية القديمة العريقة، التي تجاوزتْ تأثيراتُها الحدودَ المصريَّةَ.

لقد استفادَ المسلِمُونَ العربُ الأوائلُ من (التِّقانات، والأنماط التقليدية) التي كانتْ سائدةً في البلاد التي فتَحُوها في إشادة المباني والمنشآت؛ وذلك في الفترة الأُولى من المدرسة الإسلامية، ثُمّ ما لَبثَتْ أن تكوَّنَتْ (مدرسةٌ فنِّيَّةٌ متكاملةٌ) تحملُ (هُويَّةً مُتجانسةً) على البلاد الإسلامية قاطبةً، وصارَ من الصعب معرفةُ (الأصول المقتَبسَة) منها فانمازتْ عن غيرها من المدارس الفنِّيّة، ومردُّ ذلك إلى عواملَ مختلفةٍ منها:

* العاملُ الدِّينيُّ: –وهو أهمُّ العوامل–، وقَد أضفَى الصِّبْغَةَ الإسلاميةَ التي هي خُلاصةٌ للفكْرِ والعقيدة الإسلامية على الأبنية الدِّينيّة والمدنيَّة؛ كإشادة (المساجد، والجوامع) وفقَ نظامٍ وتخطيطٍ مُعيَّنينِ يُلبِّيان الحاجةَ الوظيفيّةَ وتأديةَ الصلاة.

* العاملُ الجغرافيُّ وتَشابهُ المناخ النِّسبيِّ في أقاليم الإسلام؛ حيث غلبَ عليها المناخُ (الصَّحراويُّ، والمتوسِّطيُّ) فتشابه النسيج العمراني في تخطيط المدن، وعُرِفَ ما يُسمّى بالنسيج (المتراصِّ، أو العَفويِّ)، وفي المجال المعماريِّ

اتَّصفَتْ العمارة بالتصميمِ البيئيِّ؛ وذلك بالتأكيدِ على انغلاقِ المباني من الخارجِ وانفتاحِها على الداخلِ حولَ باحةٍ مكشوفةٍ؛ حيث (الهواءُ الطلقُ، والماءُ، والسماءُ، والنباتاتُ).

تميَّزَت العمارةُ الإسلاميةُ بغنى مفرداتها المعماريّةِ وثرائِها، واهتمامِها بالنواحي الحياتية كافّةً، فظهرت المباني الدِّينيَّة من (مساجدَ، ومدارسَ، وتكايا، وزوايا، وخانقاهاتٍ – دُورِ الصُّوفيَّة –)، وأبنيةٍ مدنيَّةٍ كـ(الدُّورِ والقُصورِ)، وأبنيةٍ عامَّةٍ كـ(البيمارستانات–المشافي–) والخانات (محطَّات استراحة المسافرينَ)، والحمَّامات والأسواق، كما ظهرَ الاهتمامُ بالحدائقِ والسُّبُلِ المائيَّة على صعيد تخطيطِ المدن إضافةً إلى العمارةِ العسكريةِ، وبُنيت (القلاعُ، والتحصيناتُ، والأربطةُ –قلاعٌ دفاعيّةٌ– تُقامُ على امتداد الشريطِ الساحليِّ)، لم يقتصرْ غنى العمارة الإسلامية على تنوُّعِ ماهيَّاتِ الأبنيةِ وموضوعاتِها؛ بل تميَّزَت بغنى مُفرداتِها وعناصرِها المعماريّة، وكان المعمارُ الإسلاميُّ يَعتمدُ على النواحي التطبيقيّة لـ"علْمِ الحِيَلِ" ويتَّضِحُ هذا في إقامةِ (المساجدِ، والمآذنِ، والقِبابِ، والقناطرِ، والسدودِ)؛ فلقد بَرَعَ المسلمونَ الأوائلُ في تشييدِ (القِبابِ الضخمةِ) ونجحُوا في حساباتِها المعقَّدة التي تقومُ على طُرُقِ تحليلِ الإنشاءاتِ القشريةِ؛ فهذه الإنشاءاتُ (المعقَّدَةُ، والمتطوِّرةُ) من القِبابِ مثل(قُبَّةِ الصَّخْرَةِ) في بيت المقدسِ، وقِبابِ مساجدِ (الأستانة، ودمشقَ، والقاهرة وحلبَ، والأندلس) والتي تختلفُ اختلافاً جَذْريّاً عن القِبابِ الرُّومانيَّة وتَعتمدُ اعتماداً كُلِّيّاً على الرِّياضيات المعقدَّة. فلقد شيِّد البنَّاؤونَ المسلمونَ (المآذنَ العاليةَ والطويلةَ) والتي تختلفُ عن الأبراجِ الرومانية؛ لأنّ (المئذَنَةَ) قد يصلُ ارتفاعُها إلى (سبْعين متراً) فوقَ سطح المسجد. وأقامُوا (السُّدودَ الضخمةَ) أيّامَ العبَّاسيينَ، والفاطميينَ، وفي الشام، والأندلسيينَ فوقَ الأنهار كـ(سَدِّ النَّهرَوان) وسُدودٍ عديدةٍ في سُوريةَ، كما أقاموا (سُورَ مجرى العُيون) بالقاهرة، وقناطرَ وسواقي المياه في حماةَ المحميّةَ التي لا مَثيلَ لها في العالَم، وكانت هناك (سَواقٍ) في بعضِ البلادِ الإسلامية تُدارُ بالحيوانات لِتَروي (المزارعَ، والحقولَ، أو السواقي) التي تَدُورُ بقوَّةِ الماءِ ترفعُ المياهَ لِعَشرة أمتارٍ لِيتدفَّقَ في القناة فوقَ السُّور، وتسيرُ بـ(طريقةِ الأواني المستطرَقةِ) كما هي الحالُ بـ(السواقي الضخمةِ–النواعير–) على نهرِ العاصي في حماةَ وسطَ سوريةَ، تتميَّزُ الحضارةُ الإسلاميةِ بـ(التوحيد، والتنوُّعِ العرقي في الفنون، والعلومِ والعمارة طالما لا تخرجُ عن نطاق القواعدِ الإسلاميةِ؛ ففي العمارةِ بنى أبو جعفرَ المنصورُ الخليفةُ العبَّاسيُّ على نهر "دِجْلَةَ" عاصِمَتَه "بغدادَ" سَنة (١٤٥– ١٤٩) هـ على شكلٍ دائريٍّ، وهو اتجاهٌ جديدٌ في بناءِ المدنِ الإسلامية؛ لأنّ معظمَ المدنِ الإسلامية، كانتْ إمّا مستطيلةً كـ(الفُسطاطِ)، أو مربَّعةً كـ(القاهرةِ)، أو بيضاويّةً كـ(صنعاءَ). ولعلّ السببَ يرجعُ في ذلك إلى أنّ هذه المدنَ نشأتْ بجوارِ مرتفعاتٍ حالتْ دونَ استدارتِها، ويُعتبَرُ تخطيطُ المدينة المدوَّرة (بغداد) ظاهرةً جديدةً في الفنِّ المعماريِّ الإسلاميِّ –لاسيَّما في المدنِ الأُخرى التي شيَّدَها العبَّاسيونَ مثلَ مدينة "سامرَّاء" وما حَوَتْهُ من (مساجدَ، وقصورٍ) خلافيةٍ فخْمةٍ، وظهرَتْ مدنٌ تاريخيَّةٌ في ظلالِ الحُكْمِ الإسلاميِّ كـ(الكوفةِ، والبَصرة، وبغدادَ، والقاهرةِ، والرقةِ، والقطائعِ، والقيرَوان، وفاس، ومراكش، والمهديّة، والجزائر) وغيرها، كما خلَّفَت الحضارة

الإسلاميةُ مُدناً مُتحَفيَّةً تُعبِّرُ عن العمارةِ الإسلاميَّةِ كـ(استانبول) بمساجدِها، والقاهرةِ، ودمشقَ بعَمائرِها الإسلاميةِ وحلبَ، وحمصَ، وبخارى، وسمرقندَ، ودلهي، وحيدر أباد، وقندهار، وبلخٍ، وترمذ، وغَزنةَ، وبوزجان، وطليطلةَ، وقرطبةَ، وإشبيلية، ومرسية، وسرايفو، وأصفهانَ، وتبريز، ونيقيا، والقيروان، والحمراءِ) وغيرها من المدنِ الإسلاميةِ. وكان تخطيطُ المدنِ سِمةَ العمرانِ في ظلالِ الخلافةِ الإسلاميةِ التي امتدَّتْ من جنوبِ الصِّينِ حتّى تُخومِ جنوبِ فرنسةَ عند جبالِ البرانس، وكانت المدنُ التاريخيّةُ متاحفَ عمرانيَّةً تتّسمَ بالطابَعِ الإسلاميِّ؛ فكانت "المدينةُ المنوَّرةُ" قد وَضَعَ النَّبيُّ مُحمّدٌ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ أساسَها العمرانيَّ والتخطيطَ؛ حيث جعلَ مَسجدَه في وسطِ المدينةِ، وألحقَ به بيتَه، وجعلَها قطائعَ حدّدَ لها اتِّساعَ شوارعِها الرئيسيةِ، وتتحلَّقُ كلُّها حولَ مسجدِه الشريفِ، وجعلَ سُوقَها في قلبِ مدينتِه المباركةِ؛ لتكونَ بلدَ جُندِه، وعلى نمطِ مدينةِ رسولِ الإسلامِ مُحمّدٍ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ أُقيمتْ مُدنُ (الكُوفةِ، والفُسطاطِ)؛ لتكونَ أوَّلَ بلدةٍ إسلاميةٍ بإفريقية، وقد أقامَها عَمروُ بنُ العاصِ كـ "مدينةِ جُندٍ" فجعلَ مَسجدَه في قلبِها، وبجوارِه (دوواينُ الجُندِ، ودارُ الإمارةِ)، وكذلك كانت مدينةُ القيروانِ بشمالِ إفريقيّةَ، وكان التخطيطُ العمرانيُّ له سِماتُه الشرعيَّةُ؛ حيث تُشقُّ الشوارعُ بالمدينةِ الإسلاميةِ تحتَ الريحِ لِمنْعِ التلوُّثِ، وتُقامُ الورشُ (تحتَ أو خارجَ) المدينةِ لِمنعِ "الإقلاقِ، والإزعاجِ"، وكان تُمنَحُ تراخيصُ للبناءِ؛ بحيث يكون المبنيُّ من (طابقٍ أو طابقَين)، وكانت الأسواقُ "مسقوفةً" لِمنْعِ تأثيرِ الشمسِ.

كان لِكُلِّ سُوقٍ "مُحتَسِبٌ" لِمُراقبةِ (البيعِ، والأسعارِ، وجَودةِ البضائعِ)، و"التفتيشِ" على المصانعِ؛ للتأكُّدِ من عدمِ الغِشِّ (السِّلَعيِّ، والإنتاجيِّ). وكانت تُقامُ في كلِّ (مدينةٍ، أو بلدةٍ) الحمَّاماتُ العامَّةُ لتكونَ مجّانا. وكان لها مواصفاتٌ خاصةٌ، وشروطٌ متفقٌ عليها ومتَّبعَةٌ، وكان يتمُّ التفتيشُ على النظافةِ بها واتِّباعِ الصّحَّةِ العامَّةِ.

حقيقةً كانت الحمَّاماتُ معروفةً لدى (الإغريقِ، والرُّومانِ)؛ لكنّها كانتْ للمُوسرينَ. ومع هذا فقَد أدخلَ العربُ فيها "فنَّ التدليكِ" كنَوعٍ من (العلاجِ الطبيعيِّ)، وأقامُوا بها غُرَفَ البُخارِ (السونا)، ويُعتبَرُ المسلمونَ أوَّلَ مَن أدخلَ شبكاتِ المياهِ في مواسيرِ (الرَّصاصِ، أو الزَّنكِ) إلى (البيوتِ، والحمَّاماتِ، والمساجدِ..). وقد أوردَ كتابُ "صناعاتِ العربِ" رسماً وخرائطَ لشبكاتِ المياهِ في بعضِ العواصمِ الإسلاميةِ، ومعروفٌ أن الكيميائيِّينَ العربَ قد اخترعُوا الصابونَ، وصنعُوا منهُ (الملوّنَ، والمعطَّرَ)، وانتشرتْ صناعَتُه في (حلبَ، وطرابلسَ)، وكان في كلِّ حمَّامٍ "مُدلِّكٌ مُختصٌّ"، وآخرُ لـ(لعنايةِ باليَدينِ والقدمَين)، وبه حلَّاقٌ للشعَرِ، كما كان يُلحَقُ به مطعمٌ شعبيٌّ، وقد قُدِّرَ عددُ الحمّاماتِ في "بغدادَ" وحدَها في القرنِ الثالثِ الهجريِّ (٩٥٥) م حوالَي عشرةِ آلافِ حمَّامٍ، وفي مُدنِ "الأندلسِ" الأمويَّةِ أضعافُ هذا العددِ.

ويَعتبرُ المسلمونُ المسجدَ بيتاً من بُيوتِ اللهِ عزّ وجلَّ؛ حيث يؤدُّونَ به شعائرَ اللهِ تعالى –الصلواتِ المفروضةَ– وصلاةَ الجمعةِ التي فُرِضَتْ على المسلمينَ، ويُقامُ فيه تحفيظُ القُرآنِ الكريمِ.

ولِكُلِّ مسجدٍ قِبْلَةٌ يتوجَّهُ كلُّ مسلمٍ في صلاته شَطرَ الكعبة المشرَّفة بيت الله المعظَّم. وإنَّ أوّلَ مسجدٍ أُقيمَ في الإسلام(مَسجِدُ قُباء) مسجدُ الرسولِ بالمدينة المنوَّرة. وكان مُلحَقاً به بيتُه الشريفُ.

وانتشرَتْ إقامةُ المساجد كبيوتٍ لله تعالى في أنحاءِ العالَمِ كافّةً؛ ليُرفَعَ من فوق مآذنها الأذانُ للصلاة.

وقد تنوَّعَتْ في عمارتها حسبَ طُرُزِ العمارة في الدول التي دخلَتْ في الإسلام الحنيف؛ لكنّها كانت كلُّها مُوحَّدةً في الإطار العامِّ–لاسيّما في اتّجاه محاريب القبلة بها– لتكونَ تجُاه وشطرَ الكعبة المشرَّفة، وإنَّ كلَّ مسجدٍ يُوجَدُ "المنبرُ" لإلقاء (خُطبة الجُمُعَة) من فوقه. وتُوجدُ في بعض المساجد أماكنُ معزولةٌ مُخصَّصةٌ للنساء للصلاة بها، وللمسجد "مئذنةٌ" (واحدةٌ، أو أكثرُ) ليَرفعَ المؤذِّنُ من فوقها الأذانَ للصلاة، وقَد تنوَّعتْ طُرُزُها، وبعض المساجد يعلُو سقفَها قُبَّةٌ متنوِّعةٌ في طُرُزها المعماريّة.

*إنَّ المتأمِّلَ في المساجد يجدُ أنّ "المحرابَ" علامةً دَلاليّةً لتعيين اتّجاه القبلة (الكعبة المشرَّفة)، وهذه العلامةُ على هيئة (مُسطَّحٍ، أو غائرٍ–مجوَّفٍ–، أو بارزٍ). والمسلمونَ استعملُوا المحاريبَ المجوَّفةَ ذات المسقط المتعامد الأضلاع، أو المسقط النصف دائري، وقد اُختيرت (الهيئةُ المجوَّفةُ للمحراب) لغَرضَين رئيسين ألا وهما: (تعيينُ اتجاه القبلة)، و(توظيفُ التجويف)؛ لتضخيم صَوت الإمام في الصلاة؛ ليبلغَ المصلِّينَ خلفَه في الصفوف، وكانتْ "تجاويفُ المحاريب" تبطَّنُ وتُكسى بموادٍ شديدة التنوُّع كـ(الجصِّ، والرُّخام، والشرائط المزخرَفة بـ "الفسيفساء"، أو "المرمَر المزخْرف")، ونرى (المحاريبَ) التي شيَّدَها المماليكُ في مصرَ والشام من أبدع المحاريب الرخامية، حيث تنتهي تجويفةُ المحراب بـ(طاقيّةٍ) على (شكلِ نصف قُبَّة) مَكسوَّةٍ بأشرطةٍ رُخاميَّةٍ متعدِّدة الألوان، وبَرَعَ "المفنُّ المسلمُ– الأستاذُ المبتكرُ المبدعُ–" في استخدام مختلف أنواع البلاطات الخَزفيّة لتغشية المحاريب؛ أما "الخزَّافونَ" في الشرق؛ فقد استخدَمُوا بلاطات الخَزَف ذات البريق المعدنيِّ والخزَف الملوَّن باللون الأزرق الفيروزيِّ، وقد حفلَت المحاريبُ بـ "الكتابات النّسخيّة" التي تضمُّ آياتٍ من القرآن الكريم مُرفَقةً ومُعشَّقةً بالزَّخارف النباتيّة المميَّزة بـ "التوريق، والأرابيسك"، كما استخدمَتْ فيها "المقَرنَصاتُ الخزفيَّةُ" لـ(تزيين طواقي المحاريب). وجَرَت العادةُ بوضْع "المحراب" في منتصف جدار القبلَة بالضبط؛ ليكونَ "محوراً" لـ(توزيع فتحات النوافذ) على جانبَيه بـ "التوازن".

والمئذَنةُ (المنارةُ) المُلحَقَةُ ببنايات المساجد لها سماتُها المعماريّةُ، وتتكوَّنُ من كُتلة معماريّة مُرتفعَة كـ(البُرج) وقد تكون "مُربَّعةً"، أو "مُستديرةً" أو بها "جُزءٌ مُربَّعٌ وأعلاها مُستديرٌ، وبداخلها سُلَّمٌ حلزونيٌّ (دَوّارٌ) " يُؤدِّي إلى "شُرفَة" تُحيطُ بـ"المئذنة" ليؤذِّنَ من عليها المؤذِّنُ، وليَصلَ صَوتُه أبعدَ مدىً مُمكنٍ، وتتكوّنُ "المآذنُ المملوكيّةُ" من جُزءٍ (مُربَّعٍ)، ثمَّ جُزءٍ (مُثمَّنٍ) ثمَّ جُزءٍ (مُستديرٍ) بينهم (الدَّرواتُ) ويعلُوها "جَوسَقٌ" ينتهي بـ "خُوذةٍ" يُثبَّتُ

بها صواري (أعمدة) تُعلَّقُ بها (ثُريَّاتٌ، أو فَوانيسُ)؛ فمَثلاً: مئذنةُ مدرسةِ السلطانِ الغُوريِّ بالقاهرةِ أُقيمَ في طَرفِها الغربيِّ (منارٌ مربَّعٌ) يشتملُ على ثلاثةِ أدوارٍ؛ يعلُو الدَّورَ الثالثَ منها أربعُ خُوَذٍ كلٌّ خُوذةٍ منها في دَورٍ مستقلٍّ، ومحمولةٌ على أربعِ دعائمَ وبكُلِّ خُوذةٍ ثلاثُ صواري لتعليقِ (القناديلِ، أو الثُّريّاتِ) وإنّ المآذنَ المتنوِّعةَ في مساجدِ وجوامعِ دمشقَ التاريخيةِ تجمعُ بينَ الطُرُزِ (الأمويِّ، والمملوكيِّ، والأيوبيِّ) وفي الجامعِ الأمويِّ؛ حيث ترتفعُ أقدمُ مئذَنةٍ في الإسلامِ.

وإنّ الفنَّ الإسلاميَّ لم يكنْ جامداً دونَ تغييرٍ، وليس واحداً في حَدِّ ذاتِه في كلِّ مكانٍ، وهو التعبيرُ الجميلُ عن (الكونِ، والحياةِ، والإنسانِ) من خلالِ تصوُّرِ الإسلامِ لـ(لكونِ، والحياةِ، والإنسانِ) وهو الفنُّ الذي يُهيِّئُ اللقاءَ الكاملَ بين (الجَمالِ) و(الحقِّ)؛ فـ(الجَمالُ حقيقةٌ في هذا الكونِ)،و(الحقُّ هو ذُروةُ الجَمالِ) ومن هنا يلتقيانِ في "القِمَّةِ" التي تلتقي عندَها كلُّ حقائقِ الوجودِ.

ولطالما تجدَّدَ الفنُّ الإسلاميُّ خلالَ ثلاثةَ عشرَ قرناً من الزَّمنِ والتي مَرَّتْ منذُ ولادتِه كأيِّ شيءٍ حيٍّ، ولتطوُّرِه تاريخٌ ما يزالُ الكثيرُ من حلقاتِه غامضاً؛ ويُمكنُ من خلالِ هذا التاريخِ أن نُمَيِّزَ مراحلَ ونُحَدِّدَ فَتراتٍ.

ويتكيَّفُ تاريخُ هذا التطوُّرِ الفَنِّيَّ مع التاريخِ السياسيِّ في العالَمِ الإسلاميِّ، وأنَّ الفنَّ في بلادِ الإسلامِ كان من "خدمةِ الحاكمِ" أو حاشيتِه المباشرةِ؛ فـ(المعمارُ) إنّما يُشيدُ المساجدَ والقصورَ من أجلِ (الخليفةِ، أو الأميرِ)، وإنّما تُبنى المدارسُ لـ"تَحْمِلَ اسمَه، وتضُمَّ قبْرَه"؛ حيث يُدفَنُ فيها فيما بعدُ، ومن أجلِه يَنقشُ النقَّاشُونَ الرُّخامَ، ويُخطِّطُ ويَرسُمُ الرَّسَّامونَ المخطَّطاتِ، كذلك تزدادُ المنشآتُ المعماريّةُ (عدداً، ورَونقاً)، كما تزدهرُ صناعةُ الرِّياشِ تبعاً لـ(حالةِ السِّلْمِ التي تتمتَّعُ بها البلادُ، وغزارةِ الموارِدِ التي تُغذِّي بيتَ المالِ، ومستوى ثقافةِ أعضاءِ الأُسرةِ المالكةِ، وحسبَ الأذواقِ الرفيعةِ أو وَرَعِ الملوكِ)، وتخطُّ كلُّ سلالةٍ اتجاهاتٍ جديدةً تَنعكسُ بتجديدٍ (كاملٍ، أو جُزئيٍّ) في أشكالِ الفنِ الإسلاميِّ البريءِ الطاهرِ.

ويُمكنُ تمييزُ أربعِ فتراتٍ كُبرى خلالَ هذه القرونِ الثلاثةِ عشَرَ، فابتداءُ الفترةِ الأولى من منتصفِ القرنِ السابعِ عشرِ، وتستمرُّ حتّى نهايةِ القرنِ التاسعِ للميلادِ، ثمَّ الفترةُ الثانيةُ حتّى القرنِ الثاني عشرَ للميلادِ، ثمّ الفترةِ الثالثةِ حتّى القرنِ الخامسِ عشَرَ، ثمَّ الفترةُ الرابعةُ حتّى القرنِ التاسعِ عشَرَ، ومن البديهيِّ أنّه سيكونُ من المفيدِ تقسيمُ هذه الفتَراتِ الكُبرى إلى فتراتٍ ثانويةٍ، تشغلُها مراحلُ متتابعةٌ لتطوُّرٍ منقطعٍ وإغفاءاتِ نشاطِه ويقظتِه.

ويبدو من الطبيعيِّ أيضاً أن يُضافَ إلى هذا التصنيفِ الزمنيِّ تصنيفٌ آخرُ مكانيّاً؛ ففي منطقةٍ طويلةٍ تصلُ إلى الصينِ وماليزيةَ، ومن جهةٍ أُخرى تصلُ إلى الحجازِ واليمنِ، فإنّ الفنَّ الإسلاميَّ بالرغمِ من وحدتِه النسبيَّةِ يَقبَلُ تغيُراتٍ محليَّةً تُرَدُّ لـ(ظُروفِ الدولِ التاريخيةِ، وازدهارِها، أو ضَعفِها، وتقاليدِها التي يعيشُها الشعبُ، وبعَدوى الجِوارِ، وبأوضاعِ الشعوبِ التي لم يستطعِ الإسلامُ تغييرَها، ومن ثَمَّ بطبيعةِ الموادِ التي يملكُها كلُّ بلدٍ.

وثمَّةَ ضَروراتٌ سياسيَّةٌ كثيراً ما كانت تقوّي التضامُنَ بين الملوك المتباعدينَ، وثمَّةَ علاقاتٌ بين الحكَّامِ وأتباعِهم وأحلافٌ تقليديَّةٌ، ومُصاهَرات بين البَلاطات كانت تسيرُ عن طريقِ (السفاراتِ، والبعثاتِ) المحمّلَّة بالهدايا.

ويُمكنُنا أنّ نُصوِّرَ ما ينتجُ عن ذلكَ في مجالِ "الفنِّ، والأزياءِ الجديدة" التي يُمكنُ أن تنفُذَ عن هذا الطريق، وتفرضَ نفسَها على حاشيةِ السُّلطان التي تجعلُها شائعةً لدى الجمهور؛ فبَينَ الشرقِ والغرب، بين إسبانيةَ والمغرب من جهةٍ، وبينَ مصرَ من جهةٍ أُخرى، ثمّ انتقالٌ مُتبادَلٌ للصيغِ الفنِّيَّة تبعاً لانتقالِ النماذج، أو هجراتِ الفنَّانين.

وكثيراً ما يكونُ من شأن سيطرةِ سُلطانٍ ما على مَملَكةٍ مجاورةٍ أن تجِدَ فيها التفوُّقَ الفنِّيَّ للدولة المنتصرَة، فلّما جاءَ الإسلامُ، وفتحَ المسلمونَ الأوائلُ البلادَ المتحضِّرة من (فُرْسٍ، ورُومٍ)، رأَوا ما عندَهُم من الفنون فتأثَّرُوا بها، ودعاهُم التَّرَفُ إلى أن (يتذوَّقُوها، ويُقلِّدُوها)، ثمَّ أخذَ خُلفاءَ الدولة الأمويَّةَ يَجلبُونَ موادَ البناء ويستقدمونَ مَهرَةَ الصُّنّاع من شتّى الولايات؛ لإقامةِ المدنِ الجديدة، وإنشاءِ القصورِ والمساجد، واستعانُوا في بناءِ "مسجد دمشقَ" بعمَّالٍ من السُّوريّينَ والبيزنطيِّينَ لتجميله بـ "الفُسيفساء"، في حين أشرفَ على عمارته مهندسٌ إيرانيٌّ، ورَحَلَ كثيرونَ من الفنَّانينَ المصريينَ للعملِ في تعميرِ (بيتِ المقدسِ، ودمشقَ، ومكَّةَ)، واتَّبعَ العبَّاسيونَ هذا التقليدَ في استجلابِ الموادِ والصُّنَّاعِ من مختلفِ الأقاليم.

ولم ينشأ الفنُّ الإسلاميُّ في العامِ الأوّلِ للهجرَة النبويّة، ولم يظهرْ في الوقتِ نفسه الذي تأسَّستْ فيه الدولةُ الإسلاميةُ مِن قِبَلِ سيِّدنا مُحمَّد صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فـ "مَسجدُ النبيِّ" في المدينة أوجبَه فَرْضُ الصلاة، لم يَستطعِ الوصولَ إلى مستوى الإبداعِ، ولعلّه وصلَ إلى ذلكَ عندما أُعيدَ إنشاؤهُ إبَّانَ خلافةِ عثمانَ بنِ عفَّانَ رَضيَ اللهُ عنهُ، غيرَ أنّ أعمالَ أميرِ المؤمنينَ عُثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ التي تمَّتْ في المدينة، أو في الحرمِ الشريف بمكَّةَ ليست معروفةً بقَدْرٍ يسمحُ بأن نُعطيَ قيمةَ الآثارِ الفنِّيَّة المألوفة تاريخيَّاً؛ لذلك فإنّه ابتداءً من الخلفاءِ الأمويينَ فقط يُمكنُ تحديدُ تاريخِ أوائلِ الأعمال الفنِّيَّة التي يُمكنُ للإسلامِ الحنيف أن يَنسبَها إليه.

كما أنّه من المعروف أنَّ ذِكْرَ (المسجد، والمساجد، والمسجد الحرامِ) في القرآن الكريمِ بلفظها ثمانيةٌ وعشرينَ مَرَّةً، ووردَت الإشارةُ إلى المسجد الحرامِ بلفظ بيت ١٧ مرَّةً، ووَردَت الإشارةُ إليه باسْمِ "مَقام إبراهيمَ ومُصلَّى مرَّةً واحدةً، ووردَت الإشارةُ إلى المساجد بلفظِ البُيوت مرَّةً واحدةً، ولكلِ مرَّة مُناسبتُها، وهناكَ بعضُ أحكامِ المساجد قال تعالى: (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (الأعراف ٢٩). وقال جلَّ جَلالُهُ: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)(الأعراف ٣١).

وقال عزَّ وجلَّ: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)(الجن ١٨).

وقال عزَّ من قائلٍ: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(الإسراء ١) .

و قال سيِّدُنا مُحمَّدٌ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ: "وجُعِلَتْ لي الأرضُ مَسجِداً وطَهوراً" ، "إذا أردَّتَ أن تُصلِّيَ في البيتِ فَصَلِّ في الحِجْرِ" ، "مَن بَنى مَسجِداً يبتغي وَجْهَ اللهِ بَنى اللهُ لهُ بَيتاً في الجَنَّةِ" .

هذه قبساتٌ مِنَ الآياتِ القرآنيّةِ والأحاديثِ النَّبويّةِ ترمزُ إلى المسجدِ، وما لها مِن أثرٍ على العمارةِ الإسلاميّةِ الباهرةِ؛ فسُبحانَ مَن ألهَمَ و(علَّمَ الإنسانَ ما لمْ يَعلَمْ) .

الخطاط حسين عبد الرحمن حلاوة